الرمز الصوفي في شعر حسب الشيخ جعفر

قصائد موالاة الإمام الحسين عليه السلام أنموذجاً

الدكتورة آذر فيلي
مدرسة في قسم اللغة الفارسية وآدابها، جامعة دار المعلمين في محافظة ايلام، إيران
Azar.faili@gmail.com
الدكتور شهريار شادي گو
أستاذ مساعد في قسم اللغة الفارسية وآدابها، جامعة دار المعلمين في محافظة ايلام، إيران
Sh.shadigo@cfu.ac.ir
أزل علي حذوان
مدرسة في مدارس العراق ومتخرجة من جامعة الأديان والمذاهب في قم، إيران
azilazil130@gmail.com

The Sufi Symbol in Hasab Sheikh Jaafar's poetry , the poems of loyalty to Imam Hussein (peace be upon him) are an example

Dr. Azar.Feili
A Teacher in the Department of Persian Language and Literature , Dar al-Moallem University in Ilam Province , Iran
Dr. Shahryar Shadigo
Assistant Professor in the Department of Persian Language and Literature , Dar al-Moallem University in Ilam Province , Iran
Azal Ali Hathwan
A teacher in Iraqi schools and a master's graduate from the University of Religions and Sects in Qom Province , Iran

الملخص:ـ

منذ البدايات الأولى للقصايد الستينية المنتجة في العراق، شكل التحول هاجسًا رئيسيًا ليرفد عبر روافد الشعر والشعراء الستينية ومفاهيمها، وتجاربها، ورؤاها ونلاحظ بأنّ القاسم الذي تشترك بين هذه المستويات هي تحولات من خلال الأسلوب المسمى بالتجريب، وليست التجريب موضوعًا يختص بالأدب فقط، بل كان استخدامه شائعًا في كثير من الحقول. فلذلك قام الشعراء الستيني و منهم حسب الشيخ جعفر بتحطيم الحدود المقيدة بالشكليات الدارجة بين الفنون المشهورة بتأثرهم من التجارب السريالية، والصوفيانية التي كانت تغلغل نحو أفكارهم، وآراءهم وأساليبهم الفنية بأي شكل من الأشكال. إستناداً إلى منهج الوصفي - التحليلي تهدف هذه الدراسة كشف زوايا من جماليات ورموز الصوفيانية ودلالاتها في شعر حسب الشيخ جعفر عبر دراسة حياته الأدبي ومصادره الثقافي من خلال دراسة جمالية فنية من التصوف حيال قصائد موالاة الحسين عليه السلام. و تشير النتائج الحاصلة إلى أن الرمزية الصوفيانية تجلت في قصائد الشاعر لمولاة النبي وآله (صلى الله عليهم أجمعين) خاصة موالاته للحسين الشهيد عليه السلام وما تمت إلى واقعة الطف الأليمة، وتحث المتلقي على اتباع منهجهم العقائدي والخلقي، ولكن لوحظت من أنّها قليلة الوجود في شعره ولم تحوز مكانة واسعة، حيث يمكن أن يبدي الرأي بأنّ الوضع السياسي الراهن آنذاك، وحياته في روسيا الماركسية ودراسته في جامعاتها منعه من توسيع هذه الآراء دون الاشارة إليها في آثاره أو قصائده.

الكلمات المفتاحية: الرمز الصوفي، حسب الشيخ جعفر، الشاعر الستيني، موالاة الإمام الحسين عليه السلام، واقعة الطف.

Abstract:-

From the first beginnings of the sixties' productive poems (In Iraq), transformation constituted a major concern to feed through the tributaries of sixties poetry and poets and their concepts, experiences, and visions. We note that the common denominator between these levels is transformations through the method called experimentation, and experimentation is not only a topic related to literature, but its use was common in Many fields. Therefore, the sixty-year-old poets, including, according to Hasab Sheikh Jaafar, broke down the bounds of formalities common among the arts, famous for being influenced by the surrealist and Sufi experiences that had penetrated their ideas, opinions, and artistic styles in any form.

Based on the descriptive-analytical approach, this study aims to reveal aspects of the aesthetics and symbols of Sufism and their connotations in the poetry of Sheikh Jaafar by studying his literary life and its cultural sources through an artistic aesthetic study of Sufism regarding the poems of loyalty to Hussein (peace be upon him). The results obtained indicate that the Sufi symbolism was evident in the poet's poems for the companion of the Prophet and his family (may God bless them all), especially his loyalty to the martyr Al-Hussein (peace be upon him) and what led to the painful incident of Al-Taf, and it urges the recipient to follow their doctrinal and moral approach, but it was noted that it is few. It was present in his poetry and did not gain a wide profile, as one could express the opinion that the current political situation at that time, his life in Marxist Russia and his studies in its universities prevented him from expanding these views without referring to them in his works or poems.

Key words: the Sufi symbol, Hasab Sheikh Jaafar, The sixtieth poetry, loyalty to Imam Hussein (peace be upon him) , the Al-Taf incident.

المقدمة:ـ

الحديث عن الشعر وبناءاتها الموضوعاتية تتم من خلال استحضار النسق الثقافي الذي يحتضنه كل شاعر عبر الأطر الفني والجمالي باستحضار خصوصياته الموجودة والراهنة الحاكمة على بيئته. والشعر المعاصر الستيني و الذي يعبّر عنه بالرمز الصوفياني، يتجدّد في قضاياه الخاص وظواهره الفنية الجمالية مما يتفق مع معارف أجواء الادراكي للشعراء عبر مفاهيم العصرية لديهم، ومدى تفهّمهم وتعاملهم مع روح عصرهم.

تمتاز هذا النوع من الشعر في تناوله قضايا الصوفيانية لشعراء الستيني المعاصر العراقي، والذي برزت على مائدة الثقافة الصوفيانية عبر فلسفته الجمالية الخاصة والمتأثرة بالتعبير خلال عصرنته الناتجة من النص الفني باشكاله ومضامينه وأسسه ومبادءه الخارجية المفروضة عليه من زوايا الصوفيانية عبر علاقات الشاعر الصوفي بأهم قضايا بيئته والتفاعل معها، ومحاولة لتناول استكناه للحياة الجارية والسارية في ذلك بجميع امتلاكاته الثقافية والفنيّة الجمالية الصوفيائية، حيث يتمكن ليتشارك عبر استحصالاته الشعورية المعرفية بالمشاركة العامة مع زملائه الصوفي من جهة ومن جهة آخر مه مجتمعه التي يعيش فيها.

فالشعر الصوفياني الذي ظهر في بيئة صوفية مع منطلقاتها وأساليبها ومعاييرها يختلف تماما عن كل نوع من الشعر الذي ينشأ في أي بيئة أخرى مختلفة معها. يتجلي هذا النوع من الاختلاف مع ملامحه في المحتوى من عمق، وفي الخطابات الشعرية مع بعضهما البعض، حيث نجد لكل نوع من التجارب خصوصياته الخاصة الإبداعية الفنية والجمالية. فإذا كانت البيئة هي صوفية مع صبغة مذهبية دينية، فتوجه خطابها نحو الحياة لنوع عام على محوريتها، واتجاهاتها، حيث يتدخل في ترسيم معالم نوعها الثقافي ليفرض لسانه ومنطقه لكل محاولة نحو الإبداعية التي تختص به.

من جانب آخر شكل الخطاب الصوفيائي ظاهرة خاصة بصبغتها الإجتماعية والثقافية لتعبر عن حدود فشل انواع المشاريع السياسية المسيطرة في الشعور بالإطمئنان في أعماق ضمائر الإنسان الذي قد يقد الإحساس في مكمونه وخلف كواليس السياسة الحاكمة بالاستقرار من أنواعها النفسي والثقافي والاجتماعي والفكري. لذلك لم يجد نراه من أنه لم يجد على مستوى الواقع سوى تلك الخطاب المذهبي الديني الراهن على تلك البيئة كمخلص

ومتنفس له من التردي نحو الدمار الواقعه الممكنة لها. ولذلك يعبر الشعراء الصوفيائي عن هذا النوع من الحنين باستحضار العهد النبوي والإمامي الشيعي بكل ما تحمله من التراث القدسي والمثالي عبر استدعاءهم الرموز الصوفيانية المذهبية أو الدينية متمثلة في شخصية الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة من أولاده عليهم السلام، والصحابة والأولياء والاشخاص الصالحين.

حيث كانت زيارة الأضرحة من الطقوس التقليدي عند الصوفيين فشجعت الزاوية أتباعهم لزيارة هذه الأضرحة للحصول على البركات عبر تأويل بعض من الآيات القرآنية الشريفة وبعض من الأحاديث النبوية صلى الله عليه وآله المشارة إلى هذه المسألة. وتبعًا لذلك نجد أنّ بعض الشعراء الزاوية الصوفيانية ينشدون لزيارة هذه الاضرحة ومنهم حسب الشيخ جعفر الذي نلاحظ في قصائده نوع من التوسل الصوفياني التي تعبر عن مشاعر الحب والإيمان والاعتقاد في زيارة مراقد أهل البيت عليهم السلام والأولياء والصالحين. على هذه الأقدار تناول حسب الشيخ الغوص في بحر روحانيات ومعنويات أئمة الشيعة للتعبير الحي عن أعماق الشاعر وضميره ومشاركته العاشقة عبر رؤياه لهم.

شهد القرن الماضي محاولات شاعرنا بتناوله التجديد في الشعر الصوفياني العربي بالفعل، حيث أدخل عليه تعديلات جوهري على المضمون وعلى الأسلوب، متزامنا مع تجاربه الشعورية التي تبرز محاوراً عن معاناة الإنسان الستيني في حياته وأسلوب مواجهته عرفانًا لها ذكيًا. استمرت عملية هذا التجديد حتى تحول وصار نوع في القصايد وقضايا الشعر المعاصر الصوفي العربي، وفيما سيأتي في هذا البحث عرض موجز لهذا الشاعر الستيني وقضاياه الشعرية المعاصرة مع متعلقاته الفنية الجمالية والصوفيانية المذهبية خاصة في قصايده حول موالاة الحسين عليه السلام.

طرح المسألة:

لا يتم البحث عن مضامين الشعر وبناءاتها الموضوعية إلا عبر استحضار السياق الثقافي العام الذي إحتضن هذه التجربة الشعرية وأطرها الفني الجمالي، وقيام بتحديد قسماتها، وكل ذلك عبر استحضار خصوصيات شعر الفقهاء والعلماء الذين نشؤوا في أحضان زاويات الصوفيانية أيضًا. فأي تجربة شعرية، وأي عمل إبداعي في أجواء الشعرية تتدخل وتتشارك نحو تشكيل عمارة الفنية، وعمق الدلالية الشعرية مع عوامل كثيرة بالذات

وبالموضوعية مع البعض. على ذلك الأساس ينبغي عدم الإندفاع نحو قراءة هذا النوع من التجربة الشعرية مع خلفيات مسبقة في الفكر والشعور، وأيضًا عدم الحكم على الشعر والشاعر من خلال رؤية نقدية حازمة وشديدة وصارمة، عبر الإعتماد على المعايير الفنية ومنطلقة من خلال بعض المقاييس الشعرية الجاهزة.

لذلك تطلب خصوصية كل تجربة شعرية اسلوبًا في المعالجة وقراءة المتون الشعرية بعناية. على أساس ذلك إنّ الشعر الذي يظهر في بيئات صوفيانية لها صبغاتها ومعياراتها الخاصة يختلف تمامًا مع كل شعر خارج عن إطار هذه البيئة. يتجلى ملامح هذا الاختلافات في محاور عدة، منها المحتوى والخطاب الشعري مع بعضهما البعض حيث نجد لكل نوع من هذه الأساليب التجربية خصوصياته الإبداعية الخاصة لها. وإذا كانت البيئة دينية ومذهبية صوفيانية، فإن خطاباتها موجهه نحو الحياة العام الإجتماعي، حيث يتدخل في ترسيم معالم الحياة الإجتماعية والثقافية والفكرية والإعتقادية برموزها الخاصة، وكل ذلك يفرض منطقه واستدلاله على كل محاولة إبداعية في هذا الإطار الصوفياني[١].

أما شكل الخطاب الصوفياني لقد جاء بظاهرة اجتماعية وثقافية واعتقادية لتعبر عن مدى فشل المشاريع والبرامج السياسية في ايلاج الشعور عبر اقراره بالطمأنينة في أعماق ضمير الإنسان الذي فقد إحساسه بالاستقرار النفسي والاجتماعي والسياسي الراهن. فلم يجد الصوفي سوى الخطاب الديني كمتنفس ليخلصه من حالة التدهور والزوال البياني الشعري التي يكون عليها ويمتلكها. إنّ الخطاب الديني هو الذي يجعل الشاعر والأديب أن يتطلع إلى النجاة والخلاص بكل ما له علاقة مع المستقبل الذي تبشر به التعاليم الدينية[٢].

لقد كانت طقوس زيارة الأضرحة تقليداً صوفيًا، شجّعت عليه الزاوية، وكانت من سنن المشايخ والتي فرضوها على أتباعهم منفردين كانوا أو مجتمعين، وذلك من خلال معتقد الصوفيين ببركات الأولياء وقدراتهم الروحية الخارقة ومكانتهم المعنوية العالية عبر تفسير وتأويلهم لبعض الآيات القرآن الكريم والروايات والأحاديث. لذلك لا مفارقةَ في هذا الأمر لحسب الشيخ جعفر بما أنشد من قصائد الحب والموالاة للأئمة الشيعية ومراقدهم وأضرحتهم ومصائبهم ومحنهم وما تمت إليهم من معنويات وقدسيات. وعلى سبيل المثال ينشد حسب الشيخ في قصيدة: «أبي»:

ونرتدي أجنحةً بيضاءَ كالملائكة

تعلو بنا، تطير

لكننا ونحنُ في السماء

نحسُّ بالظماء

كما أحسَّ الطاهرُ الحسين(٣)

ونلاحظ بأنه يرمز إلى زيارة حرم الحسين عليه السلام الشهيد بما تمتلك من الروحانيات العظيمة، وينقل أحاسيس الروحية في ارواح وأجساد الزائرين، حيث يحسون بعلو مكانه الروحية بالصعود نحو السماء كملائكة العظام الذين يصعدون وينزلون دائماً من السماوات لزيارة حرم الشريف للإمام الحسين عليه السلام. أما من خلال البحث في المكتبة العربية والرسائل والأطاريح الأكاديمية لم يوجد بحثا يتطرق للرمز في قصائد آل البيت عليهم السلام للشاعر حسب الشيخ جعفر، رغم وجود بحوث ودراسات تناولت أدبه، لكنها بعيدة كل البعد عن موضوع هذه الدراسة بامتيازات. بعض من هذه الدراسات هي: «المتعاليات النصيّة في شعر حسب الشيخ جعفر (نخلة الله اختياراً)» للدكتور غلى هاشم طالب في جامعة المثنى؛ و: «التناص في شعر حسب الشيخ جعفر (رباعيّات العزلة الطيّبة أنموذجًا)» لسلام مهدي رضيوي الموسوي من كلية الآداب جامعة ذي قار؛ وأيضًا «دلالات المكان الشعري دراسة في شعر حسب الشيخ جعفر»، وهي رسالة ماجستير للباحث ناجي عباس مطر الركابي من جامعة بغداد الحكومية،؛ وأيضًا الدكتور حسن الخاقاني مع مقالته: «دراسة تحليلية في ديوان: "الفراشة والعكاز" لحسب الشيخ جعفر». لذلك استهدفت البحث الإجابة إلى هذا السؤال: ما هي الرموز والدلالات الصوفية التي تحملها قصائد موالاة الحسين عليه السلام للشاعر حسب الشيخ جعفر؟ و ايضا كشف جماليات الشعر الصوفي لديه مع دلالاته حتى تقدَّم للمخاطب احاسيس الشاعر المكمونة لآل البيت عليهم السلام خلال ترميزه الفنية في أشعاره..

خلفية البحث:

عبر الفحص في المكتبة العربية، والرسائل، والأطاريح الأكاديمية، ما وجدت بحثا يتطرق للرمز في قصائد آل البيت عليهم السلام، للشاعر حسب الشيخ جعفر، وإنما هناك دراسات أخرى تناولت أدبه، لكنها بعيدة، كل البعد عن موضوع دراستنا المقدمة بين يدى الباحثين؛ نسردها في الفقرات التالية:

١- رسالة ماجستير معنونة بـ "حضور السّيرة الذاتيّة في شعر حسب الشيخ جعفر"، والتي نوقشت في كلية التربية للعلوم الانسانية بجامعة ديإلى، للباحثة سرى عباس غلى عباس. ركزت الدراسة على السيرة الذاتية في شعر حسب الشيخ جعفر، وتوصلت الدراسة إلى استنتاجات عدة منها أنّ الشاعر حسب الشيخ جعفر نقل لنا سيرة حياته الخاصّة وسيرته الذاتيّة بصيغة المتكلم، ضمير يسمح لنا أن نعيش الحدث وكأنه تبرز وتتجلى أمامنا، وهناك علاقة جدلية واضحة بين سيرة الشاعر والطبيعة الشعرية لها. والسيرة الذاتية له تأثير إيجابي على شعرية السيرة، ويحوله إلى نص مصقول ومتماسك يساعد على خلق تقاليد لهذا النوع من الأدب الذي لم يتمتع بعد بانتشار وتوسيع يتناسب مع أهميّته وخطورته في تاريخ ونظرية الأدب[٤]. اوضحت الدراسة أنّ حسب الشيخ جعفر شاعر مثالي متأمل؛ هذا لأنه على يقين تام بأنّ الإبداع يأتي بالدرجة الأولى من التأمل، لأنّ الشاعر نشأ وترعرع في القرية، ثم انتقل بعد ذلك إلى موسكو، والتي تعد من أجمل المدن الأوربية، ونراه في شعره تارة متأثرًا بالريف، وأصله الجنوبي، وتارة بموسكو، مع التقدم المدني والعمراني، اي أنّ شعره مزيج بين الحالتين الاثنين؛ البداوة، والحضارة، البداوة متمثلة بنشأته الأولى؛ والحضارة متمثلة بمراهقته[٥].

٢- " قراءة نقدية لشعر حسب الشيخ جعفر "للباحث فاضل ثامر: يقوم الناقد بدراسة في شعر حسب الشيخ جعفر حيث يظل دائمًا الهم الرئيسي الواحد الذي يهيمن على المناخ الشعري لأغلب كتاباته الشعرية في «نخلة الله»، و«الطائر الخشبي» درجة تكسب هذه الأشعار وحدة سيكولوجية وشعورية متميزة، وتجعلها نتيجة لذلك أشبه ما تكون بقصيدة واحدة ذات ايقاعات متوعسة. يعتقد الناقد بأنه يجد في شعره دائمًا دورة متمًا لله: فالشاعر هو فيدياس النحات اللاتيني الذي كان يحاول عبثًا، خلال النحت «الإمساك بجمال الأزنيّ»، يحاول دائمًا امتلاك حبيبته المستحيلة، ويبعث مملكة الطفولة بكلمات تارة، وأخرى بالرحيل في مدن الوهم والتصوّف والرؤيا. إلاّ أنه دائمًا، مثل فيدياس، يواجه الخيبة والإحباط والمستحيل ولا يجد في قبضته غير حفنة من التراب والدخان. ويتبع الشاعر هذا الموقف الفيدياسي من واقع حضاري وسيكولوجي، وشخصي يتحرك منه الشاعر،

فالشاعر الريفي الساذج، الخارج تواً من قرية جنوبية وادعة، وطيبة حيث فجأة وجد نفسه بمواجهة المدنية وحضارتها الشبيهة بالطاغية. على هذا النهج قام النقاد يدرسون شعر حسب الشيخ(٦).

٣- "دراسة تحليلية في ديوان: «الفرّاشة والعكّاز»، لحسب الشيخ جعفر"، قدمه الباحث حسن الخاقاني: يقول الباحث: امتدت تجربة حسب الشيخ جعفر على مدى نصف قرن أو أكثر، حيث كانت تجربته متنوعة وغنية في مساراتها، وبعيدة في غورها إلى أعماق الروح ليجلي مخابئها، ولذلك تظهر محيطة لبعض الهالات الراقية من الشعر، والتي تقوم ترتفع في ذوات المخاطب أو القاري بازدياد لذائذه. وعلى الرغم من ذلك، لم يجد شعر حسب الشيخ ما ينبغي عليه من البحث العلمي ما وجده أشعار الحداثيين غيره، فلذلك نرى أنّ هناك مجالًا واسعًا للباحثين لاستكشافه في هذا الإطار عبر وجوه متعددة، وبتقنيات ودلالات خاصة به. وزد على ما أشرنا إليه أعلاه، هناك بعض الدراسات تبحث حول ادب حسب الشيخ جعفر وثقافته وآثاره لكنها لا يرتبط بموضوع البحث هذا؛ لذلك يكتفي بما مضت فتبين الرمزية الصوفيانية في شعر حسب الشيخ جعفر في قصائده التي أنشدتها في موالاة الحسين عليه السلام.

الشعراء الستيني:

خيم على الاجواء الثقافية العراقية في مطلع الستينيات، عجة شعراء الشباب صوب مجد الحكم و الكلمات في ايديولوجيات متنوعة من السياسيات وغيرها، بأفكار مختلفة و أحيانا متناقضة من الوجوديين، العدميين، الفوضويين، والتفكيريين بمستقبل البشرية العمالية و غير ذلك. و قد حقق الشعراء الستينيون تحوّلات ملموسات في الشعر العراقي في الصعيدين المفهومية والشعرية، بحيث ساغ اعتبارهم جيلا من شعراء جديدين. استطاع الشاعر الستيني بالعودة مع شعره الى العالم الداخلي بعد تحلقه فترة طويلة في العالم الخارجي، أي السياسة، رغم أنه ما كان بعيدا عن السياسة، بل استخرج ما هو شعري الثيمات من خلال الكتابة بلغة استعارية ذات موقف جديد من القوانين النحوية والدلالية ليطلق العنان للغة تمارس حريتها في خرق القوانين مبتعدا عن التشبيهات والرضوخ للواضح والمألوف والمعقول ولكن متنافرة الى حد بعيد.

حسب الشيخ جعفر، شعره و مؤلفاته

حسب الشيخ جعفر، من شعراء الستيني في العراق، ولد في العمارة عام ١٩٤٢م، في ناحية هور السلام، جنوب العراق، وتلقى تعليماته الإبتدائية والثانوية في ميسان. انتقل في الثامنة عشرة من العمر إلى موسكو، وذلك باختيار عن الحزب الشيوعي العراقي، ليمارس دراساته في معهد غوركي للآداب عام ١٩٥٩م. واستمرت دراساته في المعهد المذكور حتى عبر الليسانس، ونجح بالماجستير في الآداب، وذلك عام ١٩٦٥م[٧]. عاد للعراق وبدأ يمارس الصحافة، والثقافة الإذاعية ومحرراً في الصحافة البغدادية، كما اختيار عضواً للهيئة الإدارية للأدباء العراق، في ١٩٦٩م. واستمرت حتى أوائل التسعينات. وحضر المؤتمرات الأدبية المتعددة، والشعرية أيضًا في العراق البلد، ودول العربية، والاتحاد السوفيتي أيضاً[٨]. أما بالنسبة لشعره فتختلف عن رواياته، حيث كانت تمتزج من مختلف العصور. ولذلك عبر حسب في شعره من الزمكانية، وجعلت تشبه شعره إلى بعض المحاولات لفرجينا وولف[٩] في روايتها.

قام حسب الشيخ جعفر بخلق آثار كثيرة، من أهمها هي: "نخلة الله"(١٩٦٩م)، "الطائر الخشبي"، (١٩٧٢م)، "زيارة السيّدة السومريّة" (١٩٧٤)، "عبر الحائط في المرآة" (١٩٧٧م)، وأيضًا "في مثلِ حُنُو الزوبعة"، (١٩٨٥م)، "أعمدة سمرقند"(١٩٨٥م)، "كران البور"، "الفراشة والعكاز"، "تواطؤاً مع الزرقة"و رباعيات "العزلة الطيبة". ونذكر "رماد الدرويش"، وهي ذكرياته لفترة دراساته في موسكو، ورواية "الرّيح تمحو والرمال تتذكّر"(١٩٦٩م)، "مختارات من الشعر الروسي"، وترجمة قصائد" مختارة لغابرييلا ميسترال"، وقصائد "مختارة لبوشكين".

الرمز:

الرمز في اللغةً هو الإشارة والإيماء، وعند علماء علم البيان هو الكناية المخفيّة. والرّمزيّة هي مذهب في الأدب والفن حيث يظهر في الشعر بداية وذلك للتعبير عن المعاني بالإيحاء الرمزي لذلك من خلال إضافة صورة حسية وعاطفية من خلال الخيال[١٠]. ويقول في قاموس المحيط: إن الرمز هو الإشارة أو الإيماء بالشفاه أو العينين أو الحاجبين أو الفم أو اليد أو اللسان، فبالأحرى تظهر عبر الأعضاء الجسد[١١]. أما في المصطلح فهو محاولة لإيجاد شكل مناسب للتعبير من خلال تجربة الذوق الصوفي. يقول القشيري من كبار الصوفيين: يستعمل هذه الفئة فيما بينهم تعابير بقصد الكشف عنها، بحيث يكون لها معاني مبهمة وتعبيراتها غامضة للأجانب عن

الصوفية، ولا يمكن إفشاء أسرارهم، وهم يخافون أن ينالون أسرارهم غير الصوفيين[١٢].

التصوّف:

التصوف لغة قال الجوهري ما بمضمونه والصوف للغنم، والصوفة أخصم من ذلك، وصوفة كل حي من مضر، وهو الغوث بن مريم بن أدين بن طبيخة بن إلياس بن مضر، والذين خدموا في الكعبة في فترة الجاهلية، وكانوا يسمحون للحاج بإعضابهم[١٣]. ونعلم أن ما يظهر من «صفاوة القلوب ونقاوتها ومعرفة الباطني، لا يعلمه إلا الله تعالى، وقول الصوفي بادعاء ذلك تزكية لأنفسهم، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾»[١٤]. التصوف اصطلاحا من حيث التأصيل والمرجعية الفكرية، ومن حيث المشروعية، أو من حيث علاقة التصوّف الإسلامي بالشريعة، يمكن القول بأنّه يستطيع أي باحث أن يجد في القرآن الكريم، الذي أشتمل على الكثير من الآيات التي تحث على الذكر، والتفكر، والتذكر، وعلى مخاطبة التائبين، والمستغفرين، والعابدين، والموقنين، والمتبتلين، والسائحين، والمخلصين، وأولي الألباب؛ ممّا يمكن عدّه دعوة صريحة إلى ضرورة تبني المنهج وطريقة الصوفي من الناس كافة.

وإنّ سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله، قد إشتملت على الكثير من إرهاصات الرؤية المكاشفية، سواء على مستوى الممارسة، أو على مستوى الإصطلاح، فلا يخلو الأمر من تبتل، وإعتزال، وتفكر في الآفاق، وفي الانفس، ولكنها على الرغم من محاولة البعض لانساب هذه الأمور إلى التصوف، لكنها ليست كالصوفيين، بل جاءت عبر ممارسة الاخلاق والتقوى وروح السلم والصفاء الذاتي.

تأصيل التاريخي للصوفية:

إنّ فكرة التصوّف هي جزء من تاريخ الإسلام ذاته، ومظهر من مظاهر هذا الدين وما رافقته من ظروف اجتماعية، واقتصادية، وسياسية؛ والتكوين مع أنّ الإسلام ليس دينًا صوفيًا بحد ذاته. وقد الغي الدين الإسلامي صراحة أيّ امتيازات عرقية، أو طبقية لمسلم على آخر، وجعل التقوى مقياس الأفضلية بين المسلمين، وفي هذا يقول الحق جل اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ

أَتْقَاكُمْ﴾[١٥]، قد أنكر الإسلام على ذوي الأموال من الأغنياء أن يكدسوها في خزائنهم، حينما يتضور سواهم من جوع. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١٦]. ليس ذلك فحسب، بل فرض ضريبة مالية على الأغنياء، تلك هي الزكواة والأخماس، فضلاً عمّا سنّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بأفعاله وأقواله، من تشريح وتأكيد على السنن والتي هي صالحة حتى يوم القيامة لبناء مجتمع متماسك.

ولكن إنّ كنوز العراق، ومصر، والشام، من ميول الزهد، والتقشف، اقتنى الكثير من المسلمين الضياع في الإعتقادات، وأقاموا الدور المنيقة، وأحاطوا اذاتهم بمظاهر المتعة والثراء؛ ذلك أنّ الأموال التي جاءت بها الفتوحات لم تكن لتصرف في سبيل الله فحسب، إنّما رغبت الطبقات التي آلت إليها هذه الأموال، إن تتخذ منها وسيلة للإستمتاع بالدنيا[١٧]. وقد ذكر ابن سعد المدخولات الوفيرة التي أصابها بعض الصحابة، وخلفوها من بعد وفاتهم[١٨]. وكما مالت الحياة العامة نحو المصالح المادية والدنيوية، كان المتمسكون بمثل الإسلام العليا يجدون أسبابًا وبواعث أقوى ونبذ كلّ غاية دنيوية. فيعني هذا من أنّ الميل إلى الزهد مرتبطًا بالثورة على السلطة القائمة أحيانا، وإنّ كثيراً من المسلمين ذهبوا نحو حياة الاعتكاف، والزهد، احتجاجًا على ما ينكرون من حكومة ونظام، وكان الشعار الذي نفشوه على لوائهم: الفرار من الدنيا. لقد كان العراق أوفر الأقاليم الإسلامية حظًا من الحروب والفتن، فبعد قتل الخليفة عثمان، ذهبت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، وذهب الامام غلى عليه السلام، إلى الكوفة فكانت وقعة الجمل، ثم كانت وقعة صفين وبعدها النهروان، وذهب الامام الحسين عليه السلام إلى الكوفة واستشهد هناك، فخرج المختار بها يطلب ثأره، واستولى مصعب بن الزبير على البصرة، ومنها سار إلى الكوفة فقتل المختار، وجهّز عبد الملك بن مروان جيشا إلى العراق فقتل مصعبا وتغلب عبد الرحمن بن الأشعث على الكوفة فسار اليه الحجاج وتغلب عليه وهكذا السلطة و السياسة التي تقوم مثلاً صارخًا على التناقض المؤلم في العالم الإسلامي عندئذ أثرت غلى النزعات الصوفيانية.

وأما التصوّف الإسلامي هو أخذ وحصول الحقائق، واليأس مما في أيدي المخلوقات[١٩]. وأيضًا التصوّف هو ألاّ تمتلك شيئًا من الاشياء، ويقول عنه أبوبكر الكناني:

«التصوّف هو صفاء ومُشاهدة»، أنّ هذه العبارة الموجزة جمعت عنصري الوسيلة والغاية، أمّا الوسيلة فهي الصفاء، وأما الغاية فهي المشاهدة.[٢٠]ويقول ذوالنون المصري(ت ٢٤٥ هـ)، حينما سئل عن التصوّف: هو بأن تحب ما أحبه الله، وتبغض ما أبغضه الله، وتبادر بتنفيذ أفعال الخير لوجه لله، وترفض عمّا يشغلك عن الله سبحانه، ولا تخاف في اللهِ لومة لائم، وتعامل المؤمنين بالعطوفة، متزامنا بالتعاطي مع الكفار بالغلظة، وتتابع سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الشريعة[٢١]. التصوف في حقيقتها لا تمثل إلاّ نزعات تنسكية تكون مصحوبة في أكثر الأحيان بأنواع من العبادات والفعاليات الزهدية، ومقرونة بتقشف وعزوف عن مباهج الحياة وملذاتها، ويكون الغرض منها في أكثر الأحيان هو تقوية الإنسان داخليًا عن طريق إذكاء قدراته الخاصة، وتوسيع إمكاناته الجسدية، من أجل زيادة القدرة على تحمل أعباء الحياة المادية وتجاوز الكثير من مصاعبها. هذا من حيث التأصيل والمرجعية الفكرية، أما من حيث المشروعية، أومن حيث علاقة التصوّف الإسلامي بالشريعة، فيمكن القول إنّ أي باحث منصف يستطيع وبيسر بالغ أن يجد في القرآن الكريم الذي إشتمل على الكثير من الآيات،[٢٢] التي تحث على الذكر، والتفكر، والتذكر، وعلى مخاطبة التائبين والمستغفرين والعابدين والموقنين والمتبتلين والسائحين والمخلصين وأولي الألباب.

الترميز في الشعر الصوفيانية لحسب الشيخ جعفر في قصائد موالاة الحسين عليه السلام:

جذور الترميز فلسفية ولاهوتية اكثر منها أدبية، ولربما دينية أكثر من أي شيء آخر. بما أن الترميز علاقتها بالقصص كثيرة، فجميع الديانات الغربية، وكثيراً من الديانات الشرقية، جاءت بأكمل تعبير عنها بالاسطورة. يقول أحد المفكرين الترميز نوع من التعبير الفني معتمدة امكانات النص غير محددة، ولها قدرات ايحائية متنوعة في أذهان القراء في التأويل والتفسير والدلالة لإكتشافها عن أداء فني راقي للاشعاع الموحي من داخل النص إلى معنى أكثر شمولاً ليصبح الفكرة مزدوج المعنى خفي الدلالة وعميقة[٢٣].

ولذلك حاجة المتصوفة إلى الشعر تلبية لرغبتهم بالمشاركة في مجالس الصوفية التي تتخذ من السماع بابًا من أبواب تحقيق الحلقة الصوفية، والتي ينسى فيها المريد الصوفي مكانه وزمانه ويحول السماع هذه إلى الإبداعات والإنتاجات الصوفيانية والعرفانية. يظهر لنا تاريخ من أنّ هناك شعراء أبتدعوا في الشعر الصوفيائي، أمثال الحلاج، وإبن عربي، وإبن

الفارض، ورابعة العدوية[٢٤]. فالتصوّف بالأحرى عواطف واحساسات، تتأصل في الأواصر، وهي قوية في الأصول، دونما يراوده ضعف. ولذلك يأخذ مفهوم الحب الصوفي مساحة واسعة في الأدب العربي، وذلك من خلال ترميز الولاء، والسياسة، والحزن، والوفاء، والمودة، على الروح والضمير.

إذا كانت البيئة دينية وصوفية، فإن خطابها يوجه الحياة العامة، ويحدد مساراتها، ويتدخل في تشكيل خصائص الحياة الثقافية، ويفرض منطقها الخاص على كل جهد إبداعي. وبهذه الطريقة، يتوافق الشعر الذي أبدعه فقهاء وأتباع زوايا مع الخلفية الثقافية العامة[٢٥]. وعليه لا يمكن أن مثل هذا الشعر يتنكّر لجذوره الثقافية، أو لبواعثه النفسيّة والإجتماعيّة، كما لا يمكن للشاعر بالتمرد على الخطاب الأخلاقي، والديني الذي ينتمي إليه.

تفنن الشعراء في رثاء أهل بيت النبوة الاطهار عليهم السلام حتى لنجد منهم من كتب ما يشبه التغزل بتلك السجايا الالهية، والمكانة العلية التي من الله بها على آل بيت النبوة عليهم السلام. لقد أخذ الشاعر حسب الشيخ جعفر الكثير من النماذج، والتي وصف فيها التصوّف وأنشدت بمحبتهم والتعامل معهم وبالأخص مع الشخصية الحسينية، تعاملات رمزية صوفيانية، وتوظيف ذلك للواقعة الحسينية الأليمة، بمستوياتها المختلفة. ولم تكن الحديث عن الإمام الشهيد المظلوم الحسين عليه السلام وشخصيته، وأبعاد ثورته العظيمة في الشعر العربي المعاصر فقط، بل هو موضوع ذو أبعاد وسيعة ومختلفة، حتى أن تفي به على بعض الصفحات القصيرة[٢٦]. هناك أقسام من رمزيات المتنوعة في شعر حسب الشيخ، والتي ترمز إلى قضية الإمام الحسين عليه السلام وثورته الطاهرة؛ نشير إلى بعضها:

رمزية بكاء السماوات في عزاء الحسين عليه السلام:

لم يعد الحديث عن الشخصية الحسين المظلوم من المبالغة في التاريخ. وينظر الحسين الشهيد عليه السلام مثل هذه الصور الرمزية، رغم مرور أكثر من ألف عام، أنه يعيش في شرائحنا ومستشهد دائماً بين أيدينا ولم يرحل الشاعر صوب الواقعة الحسينية وحدها، بل يجعل الواقعة هذه يرحله إلى القرن العشرين، ويقوم بامتثاله رموزاً يحضر في صراعه ممثلاً في ورثة الحسين عليه السلام، الذي يجرى واقعة يوم الطف عبر صور رمزية شعرية ملطوخة بالأسى والوجع والحزن والألم. قال الشاعر حسب الشيخ:

أيّتها حُايرلاو لُيخنا
وأبكي كمَا تبكي السّماء[٢٧].

يشير حسب الشيخ هنا في قصيدته إلى رواية تحكي عن بكاء السماوات وجميع الخلائق على الحسين الشهيد عليه السلام عن جبلة المكية، قال: «سمعت ميثم التمار يقول: والله لتقتل هذه الأمة ابن نبيها في المحرم لعشر يمضين منه، ولقد أخبرني مولاي أمير المؤمنين عليه السلام، أنه يبكي عليه كل شئ حتى... الشمس والقمر والنجوم، والسماء والأرض...وتمطر السماء دما ورمادا».[٢٨] فعلى ذلك الأساس يبدي حسب الشيخ رأيه عبر رمزية الشعرية ممزوجًا بالروايات الكثيرة التي تصرح من بكاء السماوات على وجع قتل ذرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في يوم عاشوراء بأرض كربلاء. يقول الشاعر عبر تلك الرمزية بأنه يتكلم مع النخيل ويخاطب الرياح التي تمر على أرض كربلاء بأنه كلما يحضر هذه الأرض يذكر آلام الحسين الشهيد عليه السلام وأهل بيته وأعوانه وأنصاره الذين قتلوهم عطشانا في هذه الأرض وقطعوهم إربًا إربًا، وهو يبكي لتلك الوقعة الحزينة الأليمة. فيالها من روعة الرمزية باستعارة الروايات التي تتكلم عن بكاء السماوات للحسين الشهيد عليه السلام.

رمزية قدسية تراب قبر الحسين عليه السلام:

يستمر حسب الشيخ في التعبير عن رموز عاشوراء الحسين عليه السلام واستشهاده في صحراء كربلاء مع اصحابه و اهل بيته بقوله:

أيتها الجروفً في المساء...
كانت لهُ من مكّة المكرمة
عَبَاءَةٌ، ومن ترابِ كربلاء
مسبحةٌ، حجر نشمُّ في عبيره
شذى الإمام الطاهر الحسين
ونرتدي أجنحةً بيضاء كالملائكة[٢٩]

يخاطب الشاعر الصخور في عصر عاشوراء في كربلاء و يقول الحسين عليه السلام وأصحابه هم الذين كانوا يقومون بمساعدة الناس تحت ظلالهم ويرونهم من غدير ماء عذب ولايتهم طوال حياتهم. هؤلاء الذين كانت عباءاتهم متبركة بمكة المكرمة ومسابيحهم الذي يقومون

بها بذكر الله سبحانه وتعالى وتربهم للصلاة من تراب أرض حائر الحسين عليه السلام المتبركة بأرواحهم الطيبة وعطور فضاءهم المليئة بنزول وصعود الملائكة والمقيمين في حرمه الشريف. وعندما يزور أحد مضجعه الشريف يحس برمزية الإنبساط كأن له أجنحة بيضاوان كأجنحة الملائكة الذين يقيمون ويتراودون في حرمه الطاهر الشريف. وحسب الشيخ يلمح عبر التعريف الذاتي للشخصية الحسينية من خلال الشعر وما تستبطنها من وإيحاءات ودلالات جاءت في طيات الشعر المعاصر. يقول فرات الأسدي حول قصيدته "بطاقة شخصيّة"، حيث يتدرّج مع سبل التعبير بهذه الشخصية، نجد لدى حسب الشيخ جعفر توظيفًا أكثر عمقًا، وأكثر اتقادًا، وأكثر توترًا فيها.(٣٠)

بلورة رمزية استشهاد الحسين عليه السلام بمحتواها عند مواليهم كل يوم في شرائحهم:

حسب الشيخ في قصيدته: «الريح تمحو والرمال تتذكر»، يقوم بطرحه بعض الأسئلة عن الجرح، والطريق، والمتعبين، والقلوب؛ فيجيبه بما يفيد التأكيد والإصرار على السير نحو طريق الكدح والشهادة.

وأخبَرني بأنّ الطف ما زالت تُرضّ...
وما زال الرَّضيعُ، يذوبُ مِن عَطشٍ...
وما زال الحديدُ يَئنُّ، يُثقلُ مَشيةَ الأسرَى
... لم يقلْ: إنّ الجَراحَ تُباعُ أو تُشرَى(٣١)

وهكذا نشاهد بأنها ما زالت المذبحة الأليمة قائمة على قوائمها، وتلك النماذج عبر الأضلع الحمراء أيضًا، والتي رُضّت في أرض كربلاءَ، وأيضًا تلك النماذج من الرضّع الذين ما وجدوا كالحوراء زينب عليها السلام، والتي كانت قد تمسح وجوه أيتام الحسين عليه السلام بالحنان... وما زال آثار الحديد... وذلك مع أثقال خلف كواليس ودهاليز السجون، وسراديب المعتقلين. كل ذلك حدثت، رغم أنّ أنصار الحسين الشهيد عليه السلام، ما فكروا آن ما في أن يقوموا بغيار مسيرة الحدث؛ فإنها ملحمةُ صراعٍ تعتمد في جميع رموزها على حياء من الشخصية الحسينية العظيمة الشهيدة لأن تلقي الأضواء على مشاهد آخر مع أكثر رعب وقساوة، لأكثر تحديات وأشواق للمبادرة باعتناق الموت على دروب الشهادة.

نعم هكذا وبهذه الصورة من التقابل مع الرموز، ما قاموا ينظرون قضية الطف

العاشورائية للحسين عليه السلام، من منظار المعاصرين بأنّها قضية تخص لبيئة معينة مضت، أو واقعة لمذهب من المذاهب المتعددة الإسلامية فقط، وهذا بالرغم من أنّ العقيدة التي قام الإمام الحسين الشهيد عليه السلام بتمثيلها على أرض الطف، تتبلور بابراز حيّ في هذا الشعر بتحدّيها الخالدة، ومتبعي هذه العقيدة يقومون بالتنافس مع جميع المعالم الرمزية لتقديم التضحيات المستمرة من أجلها، فلذلك يقول القائلون: «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء»[٣٢]. نلاحظ من أنّ الشعر المعاصر الإسلامي، لم يبلغ حتى الآن نحو الشخصية الحسينية الشهيدة إلى درجة القناع، أو النموذجية التي تعبّر من خلال القصايد عن المحن المعاصرة تماماً، حتى يهدف نحو هذا القناع أو النموذج، بأن ينسحب الشاعر بلسان لغته الذاتي وأنانه الأليمة، ليترك هذه الشخصية القناع، وتقوم تتحدّث بموضوعية كاملة أو شبه كاملة، لا حسب كون الحسين الشهيد عليه السلام كان من الزمن في العقد السادس من القرن الأول الهجري، بل على أساس أن الحسين عليه السلام، كائن طوال التاريخ، حتى في القرن العشرين وما بعده، بجميع ما يعج الناس حول العالم به في القرن الحاضر عبر التناقضات الحاكمة، والطغيانات الدارجة، والقيام بمصادرة المبادئ، وجور السلطات.

ورغم أنّ الحركات الشعرية المعاصرة تصب حصيلة تمرداتها في نظام القصائد التقليدي لتحقيق التفعيلات، ولكن القصائد لم تستهدف مباشرة قصداً للتمرد على ما هو الجديد، بل يُجرب فيه تجريباً من دون المغامرة إلاّ ما يتعلق بجلب الرؤى والتصورات التي وظفها الشعراء الغربيون كالاسطرة، والفلكلورية، والملاحم، والشخصيات التاريخية وما تمت إلى ذلك.[٣٣] وقليل من الشعراء التجريبيين تمكنوا بتمردهم على دلالية القصيدة التفعيلة وبين تطويع قصيدة النثر،[٣٤] ومن هؤلاء الشعراء، حسب الشيخ جعفر الذي تعدُّ قصيدته التي ذكرناها أنموذجاً للتجريب الشعري الذي فيه تحتل الدلالة المركزة في المراهنة على الشكل الفني حيناً، وعلى المألوف الشعري حيناً آخر، كنوع من التمرد على ما كان الرواد قد تمردوا عليه حين استحدثوا موضوعات أفادوا فيها من الشعر العالمي.

رمزية استمرارية وقعة كربلاء في ضمير حسب الشيخ:

نجد حسب الشيخ جعفر في قصيدة: «الصخر والندى» أنه ينادي بلسان الرمز عن مظاهر العاشورائية نيابة عن الجميع:

يَا حَسرةً فِي الريح
يَا عُصفورةً منَ نَار...
يا صيحة البحر ويا عواصف الرمال
يا أخت/ يا أيها النهر.(٣٥)

نلاحظ أنّ الشاعر حسب الشيخ ينادي بالرمز المليء بالحسرة عندما يقف في حرم الحسين عليه السلام نحو الرياح والطائر والرمال والنهر العلقمي، وفي طبيعة الحال من كل مظاهر الطبيعة التي كان يحس وجودها حاضرة يوم عاشوراء، وذلك عبر الرموز الصوفي تعبيراً عن موالاته لأهل البيت عليهم السلام. ويقوم بتشريح بعض الزوايا من وقعة عاشوراء الحسينية عبر الرموز المكمونة في تلك الوقائع باستخدامه بعض الكلمات مثل حسرته للريح، والنيران التي اشتعلت بالخيام، وعواصف الرمال والسيدة زينب أخت للحسين عليه السلام وا أم المصائب لأخيه والنهر الفرات، وما إلى ذلك كله من هذه الرموز للطف الحسينية.

الترميز بالمرفأ رمزًا لحرم الحسين عليه السلام:

ومن ميزات قصيدة «المرفأ المقفر»، اعتناؤها بالطبيعة بوصفها هي الزمن، والمرفأ هو المحطة التي عندها يقف الشاعر مخاطبًا الزمن رمزًا لحرم الحسين عليه السلام، وقد وضع أوزار رحلته مستعطفًا إياه أن يفتح له أبوابه بالحياة، والنماء تطلعًا إلى مستقبل لا حدود له من بركات الإمام الحسين ومضجعه الشريف، حيث ينشد:

يا مرفأ في المطر...
افتح لنا في المطر
دربا إلى جزر بلا عنوان...
يرسو لديها القمر
ما مر فيها البشر.(٣٦)

إننا نعلم بأنّ المطر تغسل الأوساخ والدرن، ولكن الشاعر يرمز هنا عن اغتسال المطر للزائر من زيارة مضجع الشريف للحسين عليه السلام والتي تغسل أدران الروح والجسد. يأمل حسب الشيخ من أن روحانية المقام تفتح له طريقًا نحو الخلاص من جميع الأدران والأمراض؛ من نسيان معاناته وأشجانه وجميع شرور البشرية على الانسان الزائر الذي

يحضر في هذا الحرم الشريف للاستعانة من روحانيته ليشفيه باطنيًا وظاهريًا. ونعلم أنّ المرفأ مكان للورود والوقوف قليلا واستمرار بالذهاب بعد ذلك، فحرم الحسين عليه السلام مكان للزوار حيث، فجاءت المرفأ هنا رمزًا من هذه الورود والوقوف القليل للزوار.

وفي المقطع الثاني يأتي السنونو وقد اقترنت صورته بالطبيعة الغناء ذات الأجواء المعطرة بالشذا والمنداة بالمطر، لكن الطائر متعب من رحلة طويلة وبعيدة دار فيها حول الأرض يريد الخلاص من طيرانه الدائمية المتعبة طوال حياته ويطلب من هذا المكان الشريف المعطر بالأوراد أن يأكل الورود الحلوة المجننة بعطور رياح الجنة، ويشرب من غدير عذب مياهه كالمطر الذي يغسل الأدران ويشفي الأجواف، حيث ينشد:

عاد السنونو متعبا... متعبا
طوف في ارض بلا حدود
الناس فيها يأكلون الورود...(٣٧)

هل يا ترى بأنّ الزائر تعبان من مآزق حياته التي تحوطه من جميع الجهات وعندما يصل إلى هذا الحرم الشريف يحس بالخلاص من جميع مآزقه وذلك من روحانية هذا المقام الشريف الذي تختلج في زوايا روحه وجسده من اقترافه الحياة الجديدة من قمم الحياة المتلونة بالمعنويات والروحانيات الطيبة والطاهرة دون أي ريب.

رموز تلطيف الروح من زياره الحسين عليه السلام واشتراك ضمير الزائر بعطشه:

يرمز حسب الشيخ في القصيدة التالية أن زيارة حرم الحسين عليه السلام الشهيد بما تمتلك من الروحانيات العظيمة، ينقل أحاسيس الروحية في ارواح وأجساد الزائرين بحيث يحسون بعلو مكانه الروحية بالصعود نحو السماء كالملائكة العظام الذين يصعدون وينزلون دائمًا من السماوات لزيارة حرم الشريف للإمام الحسين عليه السلام.

ونرتدي أجنحةً بيضاءَ كالملائكة
تعلو بنا، تطير
لكننا ونحنُ في السماء
نحسُّ بالظماء
كما أحسَّ الطاهرُ الحسين(٣٨)

يقوم حسب الشيخ بالتعبير عن ظمأ الإمام عليه السلام في يوم عاشوراء ويرمز بذلك بالتعبير من أنّ الزائرين الكملين المخلصين عندما يعرجون من روحانية الزيارة في حرم الإمام عليه السلام مع الملائكة العظام يحسون في ضمائرهم بالظمأ، ذلك العطش الذي كان يحسه الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء في أرض الطف. وبهذه الرمزية يريد أن يعبّر عن عطش الإمام المظلوم الشهيد عليه السلام. جاء موضوع عطش الحسين عليه السلام في بعض المصادر؛ إنّ الحسين عليه السلام لما أخذ غلى الأصغر عليه السلام بين يديه وصاح: «يا قوم، قتلتم شيعتي وأهل بيتي وقد بقي هذا الطفل يتلظى عطشًا فاسقوه شربة من الماء»(٣٩).

رمزيات رأس الحسين عليه السلام ورض الأجساد الطاهرة:

يمثل الشاعر حسب الشيخ اللون الحديث التجديدي في شعره إستجابة لمؤثرات التي طلبته البيئة التي كانت تحيطه فلذلك عبر بأقصى ما أحسه بعاطفته من واقعة الطف، فعلى هذا حملت قصيدته "الصخر والندى" أحاسيسًا كثيرًا عبر تلك المؤشرات البيئية إذ عندما اختزن حسب الشيخ في ضميره المؤثرات الراسخة والممتدة عبر التاريخ لواقعة الطف الأليمة المتبلورة حوله في وجدان الشعبي مشاعر المظلومية والوفاء والإرادة والثبات، حيث انعكست المشاعر هذه في قصيدته مما توارثه حسب الشيخ من حزن متزامنًا بالإجلال والعظمة والرشادة. فينشد حسب الشيخ:

الجسدُ المنطفئُ المطحونُ بالحوافر...
والرأسُ من بابٍ إلى بابٍ على رماحِهم يطوف...
رأساً وحيداً، متربا، مقطوع...
وراءَ هذا الرأسِ مثلَ طائر
فتهدأ الروح ولا تهاجر.(٤٠)

يرمز الشاعر بقوله أنّ عسكر يزيد قاموا بعد قتلهم الحسين عليه السلام يدوسون بحوافر فرسانهم هذا الجسد الطاهر الذي كانت مقطوع الرأس وباقية على أرض الطف، ليرمز عن مدى عنادهم لأهل الحق، حتى ولو كانوا من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ويقوم الشاعر باستخدام رمزية تعليق وحمل الرأس على أسنة الرماح تعبيرًا لأقصى مظلومية اصحاب الحسين صلى الله عليه وآله وسلم. يستمر الشاعر في نفس القصيدة:

فمن يلمُّ لحمي العالقَ بالخناجر؟

وينزعُ السهمَ الذي يخترقُ الخواصر؟

فيقوم بتشريح جانب ثان من رموز الرأس الشريف، حيث يقول بأنّ القوم قاموا بقطع الرؤوس الشريفة بخناجرهم التي لصقت عليها لحوم هذه الرؤوس الطاهرة، أي أنهم لا يستطيعون أبدًا الفرار عن جريمتهم مع ذراري الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يتمكن أحد منهم أيضًا أن لا يلم نفسه بهذه الرذيلة، لأنه سيقع في فخ دائم من عذاب الضمير بهذا الفعل الشنيع.

في طبقٍ من ذهبٍ يضوع

بالمسكِ والحناء

يرمز حسب الشيخ بهذه الكلمات بأنّ عندما وصلت الرأس الشريف إلى سدة حكم يزيد بن معاوية، رغم شرافتها وطهارتها، كانت ملطوخة بالتراب والدماء، وأمر يزيد أن يجعلوه في طشت من ذهب ليفتخر بعمله الشنيع، وكانت الرأس أيضًا معطرة برائحة المسك من طهارتها، وقام ينشد يزيد بأنّ هذا قصاصًا ليوم بدر.

رمزيات ثورة الحسين عليه السلام للوقوف أمام الظلم والجور:

يقول حسب الشيخ جعفر في قصيدة "بيت على الجبل" من أنّ الشهادة هي الطريق القويم للوقوف أمام الظلم والسلطات الجائرة، رغم ما ينزل من البلوى وقطع الأجساد إربًا إربًا، وذلك لتحقيق العدالة. وعلى أساس ذلك ينشد حسب الشيخ

أُثخِنتُ في مشجرِ النبالِ

فأدركوني، قطعوا أوصالي

وعلّقوا رأسي على أسنةِ العوالي...

وانبتي قواطعَ النصالِ

يقطفُ منها غايةَ الآمالِ

فتىً بنيران الحروبِ صالِ.(٤١)

نلاحظ من أنّ الشاعر يدعو إلى دراسة تأملية لروح الحسين عليه السلام المفدى بالبطولية، أنّ الإحساس للظلم والإنفعال بالاحباط أمامها من خلال تسلّط السلطات الحاكمة وقهرهم الأمة، يدفع الشاعر نحو التوجه إلى هذا الروح العظيم لأبي الأحرار والذي قام بكل ما كان

يمتلكه باختيار الشهادة ليصل نحو الخلود في الحياة الأبدية. جاءت في رواية عن الإمام الحسين عليه السلام الهدف من قيامه: «إِنّي لَمْ أَخرُجْ أَشِراً ولا بَطِراً و... إِنَّما خَرجْتُ لِطَلَبِ الإصلاحِ في أُمَّةِ جَدّي، أُريدُ أنْ آمُرَ بالمَعروفِ وأنهي عَنِ المنكرِ و...».[٤٢] فيريد الشاعر بالتعبير رمزيًا عن ذلك الإختيار بالشهادة للإمام الحسين عليه السلام أن يُعلّم الأحرار بأن يقوموا بالسدّ أمام الجور والظلم طوال حياتهم حتى يتحرروا بأرواحهم وأجسادهم أمام الله سبحانه وتعالى ويحصلوا مرضاته.

رمزيات سوناتية لحرم الحسين عليه السلام في أيام حرمان الزوار عبر الدكتاتورية:

وإذا كانت قصيدة: «المرفأ المقفر»، قد اتسمت بكثرة الاحتفاء بالطبيعة، ومركزتها شعريًا بالتشخيص والمساءلة، فإنّ هذه القصيدة اتسمت كذلك بحضور الطبيعة في شرائحها حضوراً واضحًا، متخذة صيغة شكلية موحدة من ناحية عدد المقاطع والقوافي المنتظمة لتقدم رمزيات كثيرة نتيجة الحضور في هذا الحرم الشريف الذي يمنع السلطات الحاكمة من زيارتها.

يا سفنا مثقلة بالعاج...
مري على مرفأ
قنديله مطفأ
هناك قلبي مهمل... مهمل
ملقىً على الرمال، وريش النسور
وذابلات الزهور يحلم في أرض بلا حدود.[٤٣]

نلاحظ أنه يتألف كل سطر لمقطع الخامس من جمل تتبلور معها درامية القصيدة، ثم بالمقطع السادس يتوسع لفظيًا بمختزل دلالي ينهى الحبك السردي في خاتمة غير متوقعة، إلاّ أنّ توحيد القافية يحتاج إلى إضافة سطر لإتمام الدلالة القافية السابقة. حسب الشيخ جعفر قد عبّر عن الوضع السياسي الراهن في تلك الأيام، حيث يرمز عبر عنوان القصيدة: «المرفأ المقفر» والذي تحمل ثروات روحية ومادية ثمينة وذلك بالتعبير عن ذلك الوضع الذي فعلا أطفؤوا قناديلها، بزعمهم الباطلة يمنعون العشاق أن يجدوا طريقهم نحوه، ولكن قلوبهم مليئة بحبه وولاءه وتلك الزهور التي أرادوا اطفاء نورها ولكنهم لم يتمكنوا من قلوب العاشقين.

وإذا كانت قصيدة: «المرفأ المقفر»، هي الخطوة الأولى التي بها وضع حسب الشيخ جعفر قدمه على أول الطريق باتجاه الافادة من السونيت نمطًا شعريًا للتعبير عن الرموز الولائية. يقول أحد الباحثين في مجال استخدام الرموز في الشعر الصوفيانية من أنه كانت الرموز الأسطورية الولائية لأهل البيت عليهم السلام في كل قصيدة سونيتية لحسب الشيخ وموضوعها المستل من صميم الذات وعلاقاتها بواقعها مما أعطى للقصائد طابعها التجديدي ومنح الشاعر خصوصية النظم، لا بطراً أو رغبةً في المضاهاة والتباري، وإنّما شعوراً بأنّ في أغراض القصيدة الكلاسيكية ما يستحق البناء عليه، وتطويره، وليس التمرد عليه ورفضه.(٤٤) ولذلك قيل بأنّ طريق حسب الشيخ في القصيدة المدورة، مثل «السيدة السومرية» لم تتمكن بتجارب غيرها، ولعل حسب الشيخ ما تمكن من تحرير ذاكرته إلا بعد ما ترك التدوير بانتقال مفاهيم الرمزية التي استهدف من خلالها ترسيم رموز الولائية لأهل البيت عليهم السلام(٤٥).

الخاتمة والنتائج:ـ

وبعد دراسة شعر حسب الشيخ جعفر لوحظت بأنه كان يهتم برموز صوفيانية في أفكاره وآراءه و في قصائده خاصة قصائده في موالاة الحسين الشهيد عليه السلام وما تمت إلى واقعة الطف الأليمة، وعليها تحث المتلقي على اتباع منهجهم العقائدي والخلقي، ولكن لوحظت من أنّها قليلة الوجود في شعره ولم تحوز مكانة واسعة، حيث يمكن أن يبدي الرأي بأنّ الوضع السياسي الراهن آنذاك، وحياته في روسيا الماركسية ودراسته في جامعاتها منعه من توسيع هذه الآراء. نشير إلى بعض النتاج من خلال البحث بما يأتي:

١- إنَّ اسلوب تجلى الشعر الصوفي ورموز دلالاتها التي تحمل طوابع ملونه من موالاة أهل البيت عليهم السلام في شعر حسب الشيخ جعفر، جاءت عبر بعض قصائده الذي كان يشرح فيها موالاته للحسين عليه السلام من الناحية الصوفية حسب إدراكه من هذه المكانة بشريحات التصوّف عنده.

٢- أنّ هذا التصوّف الإسلامي بخطه الشرعي، هو غير المذاهب أو النحل السرية، أو الإتجاهات الغنوصية، أو الباطنية.

٣- اتسم شعر حسب الشيخ جعفر بالرؤية التصوّفية منذ أن كتب الشعر قبل وبعد هجرته إلى روسيا، وكانت ذكرياته الروسية النبع الهامة في إلهامه لكل ما كتبه، مثل

حكايته الشخصية والتي كانت بدءها ونهايتها هناك.

٤- وقف حسب في ديوانه من موقف المتأمل الذي يرى حركة الحياة عبر منظاره التي تختزن بالتجارب الكبيرة، والتي أفضت في آخرها نحو اللّاشيء، وهذا لما يقف العالم المخروب على حافات من هاويات مسحوقة لا محاله له من السقوط.

هوامش البحث

(١). اسماعيل، الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: ص ١٣
(٢). اسماعيل، الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: ص ١٤
(٣). المطبعي، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين: ج ١، ص ٥٣
(٤). علي عباس، «حضور السيرة الذاتية في شعر حسب الشيخ جعفر»: ص ٢٢
(٥). علي عباس، «حضور السيرة الذاتية في شعر حسب الشيخ جعفر»: صص ٣-٤
(٦). ثامر، قراءة نقدية لشعر حسب الشيخ جعفر: ص ٣٠
(٧) - الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي: ص ١٣١
(٨). المصدر نفسه.
(٩). ويكيبيديا «آدلاين ويرجينيا وولف»
(١٠). مختار، معجم اللغة العربية المعاصر: ج ١، ص ٣٧٢
(١١). الجوهري، قاموس المحيط: ج ٢، ص ١٧٥
(١٢). القشيري، الرسالة القشيرية: ص ٩٢
(١٣). الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ج ٦، ص ٣٠٤
(١٤). النجم: ٣٢
(١٥). الحجرات: ١٣
(١٦). توبه: ٣٤
(١٧). زيهر، العقيدة والشريعة: ص ١٣٨
(١٨). المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ج ٢، ص ١٥٧
(١٩). عطا، التصوّف الإسلامي بين الأصالة والإقتباس في عصر النابلسي: ص ١٨٥
(٢٠). النقشبندي، طبقات الصوفية ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات: صص ٤٨-٥٢
(٢١). السلمي، طبقات الصوفية ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات: ص ١٨

(٢٢). النجار، الطرق الصوفية في مصر نشاتها ونظمها وروادها: ص ٨
(٢٣). غريب، تمهيد في النقد الحديث، دار المكشوف: ص ٢٢٩
(٢٤). مبارك، التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق: ص ٣٢
(٢٥). الشيبي، الصلة بين التصوّف والتشيع: ص ١٣٦
(٢٦). زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: ص ١٥٢
(٢٧). الشيخ جعفر، «صحيفة الزمان الدولية»: ص ٢٤
(٢٨). المجلسي، بحار الأنوار: ج ٤٥، صص ٢٠١-٢٠٢
(٢٩). الشيخ جعفر، «صحيفة الزمان الدولية»: ص ٢٤
(٣٠). الأسدي، ذاكرة الصمت والعطش: ص ١٥
(٣١). الشيخ جعفر، الريح تمحو والرمال تتذكر: ص ٣٨
(٣٢). صحتي سردرودي، چند حديث معروف درباره عاشورا: صص ١٣٦-١٣٧
(٣٣). جميل، أشياء حذفتها الرقابة: ص ٩٨
(٣٤). الغماري، قراءة في آية السيف: ص ٥٠
(٣٥). الشيخ جعفر، صحيفة الصباح: ص ٢٣
(٣٦). الشيخ جعفر، صحيفة الصباح: ص ٢٣
(٣٧). الشيخ جعفر، صحيفة الصباح: ص ٢٣
(٣٨). المطبعي، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين: ج ١، ص ٥٣
(٣٩). ابن طاوس، اللهوف علي قتلي الطّفوف: ص ١٦٩
(٤٠). الشيخ جعفر، الأعمال الشعرية ١٩٦٤ - ١٩٧٥م: ص ١٥
(٤١). الشيخ جعفر، الأعمال الشعرية ١٩٦٤ - ١٩٧٥م: ص ٧٣
(٤٢). المقرم، مقتل الحسين عليه السلام: ص ١٦٥
(٤٣). الشيخ جعفر، صحيفة الصباح: ص ٢٣
(٤٤). العنزي، الحوار المتمدن الرمز الاسطوري عند حسب الشيخ جعفر: صص ٣٤-٣٧
(٤٥). ذياب، «المتفرّد الذي جعل لغة القصيدة لعبةً يلهوبها».

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. اسماعيل، عز الدين، (٢٠٠٣م). الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. بيروت: منشورات دار الثقافة.

٢. المطبعي، حميد. (١٩٩٠م). موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة – جروس برس.

٣. عباس غلى، سري. (٢٠١٩م). «حضور السيرة الذاتية في شعر حسب الشيخ جعفر». رسالة ماجستير، بعقوبة: جامعة ديالى.

٤. ثامر، فاضل. (٢٠٢٠م). قراءة نقدية لشعر حسب الشيخ جعفر. القاهرة: الفردوسي.

٥. الجبوري، كامل سلمان. (٢٠٠٣م). معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م. بيروت: دار الكتب العلمية.

٦. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. (١٤٠٧ق). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق عطار أحمد عبد الغفور. بيروت: دار العلم للملايين.

٧. مختار، أحمد. (٢٠٠٨م). معجم اللغة العربية المعاصرة. بيروت: عالم الكتب.

٨. الشيبي، مصطفى. (٢٠٠٠م). الصلة بين التصوّف والتشيع. النجف الأشرف: دار الصادق.

٩. السلمي، محمد بن الحسين. (٢٠٠٣م). طبقات الصوفية – ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات. تحقيق عطا مصطفي عبد القادر. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠. المقرم، عبد الرزاق. (١٤١٢م). مقتل الحسين عليه السلام. قم: منشورات الرضي.

١١. النقشبندي، الشيخ أمين علاء الدين. (١٩٨٨م). ما هو التصوّف – ما هي الطريقة النقشبندية. ترجمه محمد شريف أحمد. بغداد: الدار العربية

١٢. عطا، عبد القادر أحمد. (١٩٨٧م). التصوّف الإسلامي بين الأصالة والإقتباس في عصر النابلسي. بيروت: دار الجيل.

١٣. حسب، الشيخ جعفر. (١٩٧٧م). عبر الحائط في المرآه. بغداد: دار الحرية للطباعة.

١٤. ـــــــــــ. (١٩٧٨م). ملحمة أهل البيت. بيروت: دار الزهراء.

١٥. ـــــــــــ. (١٩٨٥م). الأعمال الشعرية الكاملة زيارة السيدة السومرية. بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية.

١٦. ـــــــــــ. (٢٠٠١م). ديوان الفراشة والعكاز. بيروت: الدار العربية ناشرون.

١٧. ـــــــــــ. (٢٠٠٦م). صحيفة الصباح. الكويت: مركز الدراسات والبحوث الكويتية.

١٨. النجار، عامر. (١٩٩٣م). الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها. مصر: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.

١٩. مبارك، زكي. (٢٠١٢م). التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق. القاهرة: مؤسسة الهنداوي.

٢٠. الأسدي، فرات. (١٩٩٧م) ذاكرة الصمت والعطش. بيروت: دار الحق.

٢١. القشيري، أبو القاسم. (١٣٩٨ق). رسالة القشيرية. تحقيق: القاضي زكريا بن محمد الأنصاري. القاهرة: دار جوامع الكلم.

٢٢. ترحيني، فايز. (١٩٩٠م). الإسلام والشعر. بيروت: دار الفكر اللبناني.

٢٣. غريب، رز. (١٩٧١م). تمهيد في النقد الحديث. بيروت: دار المكشوف.

٢٤. المزي، جمال الدين أبي يوسف. (١٩٣٤م). تهذيب الكمال في أسماء الرجال. دمشق: نشر دار المأمون للتراث.

٢٥. الصدوق، الشيخ محمد بن غلى بن بابويه. (١٤٠٦ق). ثواب الأعمال وعقاب الأعمال. قم: دار الرضي.

٢٦. الغماري، مصطفى. (١٩٨٣م). قراءة في آية السيف. الجزائر: منشورات الشركة الوطنية.

٢٧. جميل، جواد. (١٩٩٧م). أشياء حذفتها الرقابة. بيروت: دار الفرات للنشر والتوزيع.

٢٨. المجلسي، محمد باقر. (١٤٠٣ق). بحار الانوار. بيروت: مؤسسة الوفاء.

٢٩. عشري زايد. غلى. (١٩٩٧م). استدعاء الشخصيات التراثية. مصر: دار الفكر العربي

٣٠. العنزي، عباس. (٢٠١١م). الحوار المتمدن- الرمز الاسطوري عند حسب الشيخ جعفر. بغداد: المجمع الأدبي للشعراء.

المجلات والبحوث:

١. صحتي سردرودي، محمد. (١٣٨١ش). «چند حديث معروف درباره عاشورا». مجله علوم حديث ٢٦(١).

المواقع الإلكترونية:

١. حسب الشيخ، غلى. «صحيفة الزمان الدولية».
https://www.azzaman.com/sahife/sheykh

٢. ذياب، صفاء. (٢٠٠٥م). «المتفرّد الذي جعل لغة القصيدة لعبةً يلهوبها».
https://alsabaah.iq/63284-.html

٣. ويكيبيديا الموسوعة الحرة. «آدلاين ويرجينيا وولف»
https://fa.wikipedia.org/wiki/%D9%88%DB%